الفن الروائي والتاريخ
تعالق إبداعي

إعداد

د/ كمال سعد محمد خليفة

أستاذ الأدب والنقد في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

الفــن الروائي والتاريــخ تعالق إبداعي

كمال سعد محمد خليفة
قسم الأدب والنقد، كلية البنات الإسلامية، جامعة الأزهــر فــرع أســيوط، مصر.
البريد الإليكتروني : kamalsaad.78@azhar.edu.eg

الملخص:
تعنى الدراسة بكشف العلاقة الجمالية بين الإبداع الأدبي في فــن الروايــة وبين تاريخ الأمة في أوج عصور ازدهارهــا أو انكســاراتها الحضــارية والإنسانية ، في عصورها المتتالية، بداية من الفرعوني وحتــى العصــر الحديث ، مرورا بالعربي والإسلامي.. إذ يشكل التاريخ مادة إبداعية جاهزة أمام المبدع الروائي ، ذي الموهبة القادرة على إدراك الوشيجة الحضــارية والقدرة على توظيفها في إنتاج الفن الروائي في أدبنا العربي ... فــالواقع الذي نعيشه ما هو إلا امتداد لهذا التاريخ .. واستدعاء التاريخ في العمــل الأدبي ، تنشيطاً لذاكرة الأمة وإحياءً لتراثها ، وتشكيلاً لوعيها الحضــاري وبطولاتها الإنسانية ؛ لتسهم في بناء إنسان العصر الحاضر في عالمنــا الذي نحياه.

الكلمات المفتاحية : الرواية ، الفن الروائي ، التاريخ ، التعالق ، الإبداع.

Narrative Art and History Creative Interaction

Kamal Saad Mohammed Khalifa
Department of Literature and Criticism, College of Islamic Girls, Al-Azhar University, Assiut Branch, Egypt.
Email: kamalsaad.78@azhar.edu.eg

Abstract:
The study is concerned with revealing the aesthetic relationship between literary creativity in the art of the novel and the history of the nation at the height of its prosperity or civilizational and human failures, in its successive eras, starting from the Pharaonic until the modern era, passing through the Arab and Islamic .. As history constitutes a creative material ready for the creative novelist, The talented person who is able to perceive the cultural bond and the ability to employ it in the production of fictional art in our Arab literature... The reality we live in is nothing but an extension of this history... Revitalizing the nation's memory, reviving its heritage, and shaping its civilizational awareness and human heroism to contribute to building the human of the present age in our world that we live it.

Keywords: The Novel , Fictional Art , History , Interdependence ,Creativity.

إن الرواية من بين فنون الإبداع الأدبي ، باستطاعتها أن تقدم عبر الوشائج الجمالية التي تصنع العلاقة الجاذبة عبر تجربة بناء الفن أن تصنع العالم أو الفضاء الحيوي لإمكانات الحياة بخصائصها الإنسانية التي تنهض على الواقع وإن كانت لا تمثل صورته (الفوتغرافية) ، ما يحفزنا لأن " نفتح عيوننا على هذا السلاح الفاعل ، الذي يسهم عبر خصائصه في تقديم الإنسان وتشكيل رؤيته / هويته الحضارية ، على أرض الله الواسعة، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا : بأن القصة / الرواية كان لها النصيب الأوفر، في تشكيل الرؤية .

نجح بعض الأدباء المخلصين من أبناء الأمة، الذين عنوا بقضايا الإنسان في هذه الحياة ، ووعوا خطورة هذه الفنون إذا ما يحسن توظيفها لعرض هذه القضايا ، من آمال الأمة وآلامها عبر تاريخها الممتد على خريطة الحية . " فالتاريخ، هو ذاكرة الأمة، وبقدر ما تسلم هذه الذاكرة، وتحسن الأمة التعامل معها، بقدر ما يمتد تأثيرها ، وتبرز قدراتها وتقوى شخصيتها [1] فإذا وعى الكاتب توظيف هذه النماذج الهائلة ، المشرقة في تاريخنا الإسلامي ... وحركتها في العالم التاريخي ، ومن ثم حركتها في العالم الإبداعي لأنتج أدباً ، ومن ثم ، شخصيات إنسانية / إبداعية قادرة على أن تكون القدوة ، والأنموذج ؛ تتجسد خلاله ، وعبر حركته ، القيم الحضارية والفضائل الإنسانية التي تنبثق رؤية الإسلام التي عنيت

---

(١) المسلمون وضرورة الوعي بالتاريخ . مقال لعبد القادر عبار بمجلة الأمة عدد ٤٢/ جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ .

بصناعة الأنموذج الإنساني الحضاري ، ودعت إلى التزام هذه القيم في حياتنا وواقعنا المعيش ..

بهذا الحضور والثراء والامتلاء الفني القادر على تقديم الدور الفاعل في تنمية المجتمع، وإنماء حركته البشرية . سيما في الزمن الذي يعز فيه وجود الأنموذج الإنساني القادر على تخليص المجتمع أو الأمة ، مما ألم بها من معوقات تقعد بالأمة عن أداء دورها الفاعل ، في حياة المجتمع فضلا عن انطلاق عناصرها إلى الآفاق الرحبة ، في الاتجاهات المختلفة التي تفتقد ، أو يكاد ينعدم فيها هذا الأنموذج الإنساني الحقيقي ... فالتاريخ ، بهذا الخصوصية الحضارية القادرة يصبح " تجربة عطاء ، في شتى مجالات المعرفة ، والحركة الإنسانية .. وحصيلة سنن تحكم الطبيعة والإنسان والعالم .. حركة حياة نامية متطورة تتدفق من أعماق الوجدان البشري ؛ لتنساح ــ بعد هذا ــ على مساحات الزمان والمكان ، ولتنشئ ــ من ثم ــ دولا وأحداثا وحضارات ، هي نتاج تفاعل خلاق بين العقل والعاطفة ، والمادة والروح ، والوعي المباشر وغير المباشر ، والطبيعة والغيب ، والتراب والحركة ، والقدر والحرية .. [١]

وإذا كان المسلم المعاصر في عصرنا ، وعبر امتداده التاريخي الطويل، على اختلاف حقبه السياسية ، وحلقاته المتواترة والمتوترة ، قد فَقَد – بفعل الاحتكاك الحضاري حينا ، والنكوص الفكري والعلمي ، والتخلي عن مصادر القوة والثراء الحضاري أحيانًا – بعض مقومات

---

(١) في النقد الإسلامي المعاصر ص ٣٢٨ ، ١١٨ . د / عماد الدين خليل ــ مؤسسة الرسالة ــ ثالثة ــ ١٩٨٤م ــ بيروت .

شخصيته وهويته الحضارية ، وطفت على السطح شخصية :إنسانها " يعاني الانفصام والتردي في هوة الاستلاب الحضاري والفكري ، ما جعله يجني ؛ بل يحصد عوامل التخلف الفكري والحضاري ، التي لاذ بها وركَن إليها ، فانطفأت سراج روحه ، وتهدم بنيانه من داخله ، فتساقط جسد الأمة ، عضوا تلو الآخر ، داخل هوة الانكسار التي صنعها بيده ، أو بيد من يملكون صناعة قراره !!... ما يحملنا على ضرورة اللجوء إلى هؤلاء المبدعين ، من أبناء الأمة ، الذين يعانون آلامها ومشكلاتها ، ويعيشون قضاياها وطموحاتها ، يلجأون إلى مواهبهم الخصبة ؛ يصنعون من التاريخ- إن جاز التعبير ــ نماذج وأنماطًا ، قادرة على تكوين الأنموذج الحضاري الفاعل في هذا المجتمع ، عبر حركة منضبطة بالتصور الحضاري الإنساني (الإسلام)، وسلوك نابع من رؤيته الحضارية الخالصة..

فالبطل من هذا المنظور الحضاري " هو القدوة ، أو الأنموذج ، أو المثال الحي الذي تتجسد فيه القيم الحضارية .. حتى وإن شابه ضعف ، أو تخلٍ عن اعتناق بعض هذه القيم ، أو انحراف عن مساراتها التي تنتهي به إلى تشكيل هذه الهوية ؛ لأن الإسلام بوصفه دينا حضاريا يسعى نحو بناء / خلق إنسان حضاري ، متوشجا قيمه وخصائصه ، لا يغلق الباب في الآن نفسه أمام النماذج الشائهة ، أو نماذج الضعف البشري ، أو البطولة الناقصة التي تحتاج إلى تجربة ومعاناة ، وهي في طريقها إلى النمو والاكتمال.

هذه النماذج الناقصة أكثر جاذبية للأديب ؛ لأنه يجد فيها مادة خصبة للمعالجة ، ومحاولة إخضاعها للعديد من العوامل والمؤثرات ، أو الأحداث

التي تحقق من خلال نموها وتطورها ، بأسلوب مقنع ؛ ليصل إلى المثال المطلوب ، أو القدوة المنشودة ، إذ أن مهمة الأدباء في الرؤية الإسلامية ليست قسرا على النماذج الصالحة الطيبة ، وحمايتها من الانزلاق أو المروق ، فحسب . ولكن المهمة الأكبر تكمن في استنقاذ الجانحين ، وإصلاح الفاسدين ، وفتح باب الأمل أمام اليائسين ، أو المترددين ، والأخذ بأيدي التائهين ، إلى طريق الحق والخير والجمال . فالبطل في الأدب الإسلامي هو هذا أو ذاك ...؛ لأن الخروج من المأزق بطولة ، وكذلك التخلص من سلبيات السلوك ، وهواجس الضعف ، وإغراءات الحياة الزائفة بطولة ، والانتقال من حال متردية إلى حال متسامية ، والخروج من السلبية إلى الإيجابية بطولة ، والتخلص من أدران الشك ، والخوف ، والتسبب ، والقدرة على بدء حياة نقية جديدة بطولة ... كل هذا ، يعد ضربا من البطولة ، البطولة الجديرة بالإبراز والتمجيد ، لأنه يعني انتصار الخير على الشر ، في قلب الإنسان أولا ، وفي معترك الحياة ثانيا ". (١)

إذن البطل في الرواية التاريخية ، ما هو إلا " تجسيد لفكرة يرى الكاتب إبرازها لتؤدي دورا ، تمتزج فيه المنفعة بالمتعة ، لدى المتلقي ، فيتفاعل معها ، ويتأثر بها ... ومن ثم ، تولد لدى المتلقي قناعات بعينها ، قد تدفعه إلى اتخاذ موقف" (٢) .

والبطولة في الرواية التاريخية التي تتخذ موضوعها غالبا من حياة

---

(١) مدخل إلى الأدب الإسلامي ص ٥٥ ، ٥٦ بتصرف د / نجيب الكيلاني – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – كتاب الأمة – عدد (١٤) – قطر .

(٢) مدخل إلى الأدب الإسلامي ص ٥٧ بتصرف.

الناس وأزماتهم الإنسانية على امتداد تاريخهم ، ليست على صورتها في الفكر الشعبي ، أو حتى اللغوي ، فإذا نظرنا لهذا المصطلح (البطل) نجد أن التفكير يأخذ بعضا من الناس إلى كونه البطل الحربي الشجاع المقدام ، الذي يقهر الآخرين ويكسر النخوة في نفوسهم ، فيجبنوا عن مواجهته ؛ لأنه يأتي بالخوارق من الأفعال التي قد يعجز الناس عن مواجهتها .

البطل في الإبداع الفني [١] : " محارب شهير ، أو إنسان يعجب به الناس، لما له من مآثر ومكرمات ، وذلك مثل : " عنترة " عند العرب ، والبطولة : بسالة خاصة بكبار الشجعان) [٢] فهي لا تخرج في مجمل صياغاتها عن المعنى اللغوي السالف ، وإن راعت الجانب الروحي ، أو الإنساني في ذات البطل ، (لما له من مآثر ومكرمات) قد تكون له في حياة الناس بعيدًا عن حلبات الصراع أو ميادين القتال ... أما التصور الفني الإبداعي لشخصية البطل ، كما وضحنا ، فهو يختلف عن هذه المضامين السائدة ، وإن كان يحمل في ذاته فرادة وتميزا عن بقية الشخصيات التي يضج بها العمل الفني ، إلا أن هذا التفوق ، وهذه الفرادة ، يكتسبها البطل من حركته الدءوب ، وفاعليته في حركة الحدث الرئيس وتصاعده ، ونمو الأحداث الناشئة عنه ومعه ، حتى يكتمل لدى المبدع والمتلقي معًا ، تصورًا خاصًا لهذه الشخصية ، تستحوذ على المتلقي ، وتملك عليه حواسه ، وفكره

---

(١) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص ٧٨ مجدي وهبه وكامل المهندس مكتبة لبنان ثانية ١٩٨٤م . بيروت .

(٢) المعجم الأدبي ص ٥٠ جبور عبد النور ــ دار العلم للملايين أولى ١٩٨٤ــ بيروت .

ووجدانه ، بعدما نالت اهتمام الكاتب ، وإبداعه في تحديد ملامحها ، وتشكيل هويتها ، عبر الصراع المتنامي في كيان العمل الفني . وهذا ما يلمح إليه المبدع الروائي " سهيل إدريس " في شهادته التي يرصد فيها صورة البطل في الرواية العربية ، فيقول : " إن إنتاجنا الروائي الحديث قد أمات البطولة بمفهومها التقليدي ، ليحيى بطولة أخرى ، هي بطولة الإنسان الطبيعي ، الذي يعي الحياة الطبيعية بكل أبعادها ... إن إنسان روايتنا الحديثة ، وبطلها في آن واحد ، هو كائن يبحث عن ذاته الحقيقية ، عبر تجارب كثيرة ، يبدو فيها تائها ، غير مستقر ، يسافر طويلاً في الماضي ، ويشطح إلى المستقبل ، ويبلو كثيرًا من النساء ، ويأثم ، ويخون ، ويتعثر ، ويحب الحب العاطفي ، والحب الشهواني ، ويخيب في كليهما ... وإذا آمن مرة بالقيم ، كفر بها مرات ، وإذا داعبته الأماني والأوهام ، فلا تلبث الخيبات أن تدمي قلبه ، فيكشف في أعماق نفسه يأسا وأسى ، ويستبد به قلق عظيم ...)[1]

فإن كان هذا هو البطل في الرواية العربية ، أو الشخصية المحورية في العمل الفني ، التي أفرزتها هذه القرائح الإبداعية ، في هذه العصر ، فإننا لا نقبل بهذا الإنسان التائه ، القلق دائمًا ، الذي يتحرك كالأعمى ، الفاقد لعصاه !!، فأي إنسان طبعي ، يعيش حياة طبعية يكون هكذا تائها قلقا لا يستقر على مرفأ ؟! فإذا كان الأدب في إبداعه ، يسعى دائمًا في

---

(١) هذه الشهادات منقولة عن مجلة (الحرس الوطني) العدد ١٨٩/١٩٠ المحرم ١٤١٩هـ . مايو ١٩٩٨ مقال للأستاذ :حسن حجاب الحازمي نقلا عن مجلة الآداب العدد الأول يناير ١٩٥٩ ص :٣٢٢ .

مفهومنا إلى الارتقاء بالإنسان ، وقائم في تقديم نماذجه على الاختيار ، والانتخاب من المجتمع الذي يتناول قضاياه ومشكلاته فيسمو بالإنسان الطبيعي نحو عالم البهجة والتطهير ، فهل تكون أدواته هذه الكائنات المريضة القلقة التائهة ؟! أم أن مجتمع " سهيل إدريس " لم يدب على أرضه إلا المرضى التائهون الآثمون ؟! .

الأدب ومبدعوه الذين تنبثق رؤاهم عن رؤية كونية حضارية ، تسعى دائمًا لإصلاح الخلل الاجتماعي ، وتنظيف الواقع المهترئ ، وتربي أفراده على الشفافية والنقاء في إبداعهم ، لا ينكرون وجود مثل هذه النماذج أو الأنماط المنحرفة ، والمعتلة فكريًا واجتماعيًا بل ونفسيًا ، ولكن ليس بمعنى أن هذه النماذج هي التي تعبر عن المجتمع كله !!. فالمجتمع مليء بالأصحاء المستقيمين فكريًا واجتماعيًا ونفسيًا ، والواقع يقتضي أن يكون هذا إلى جوار ذاك ؛ القوة إلى جانب الضعف ، الطهر والنقاء إلى جانب السقوط والرذيلة ، لكن تُصَوَّر هذا البؤر المظلمة في حياة الإنسان ، على أنها لحظات ضعف ووهن .. لحظات مرض فحسب ، على هذا الإنسان أن يلتمس الشفاء منها ، حتى يبرأ وتصح نفسه ، وتسلم جوارحه ... فواقعية حضارية رؤية الإسلام " تجمع بين السماء والأرض ، وبين الطبيعة المحسوسة والطبيعة غير المحسوسة ، تتطلع نحو السماء دائمًا إلى الأفق الفسيح ، إلى الحقيقة العليا التي تتعاضد مع بعض المقومات الإنسانية في التصور الإسلامي ؛ لتكون الواقع الإنساني للإنسان والحياة والكون . من ثم ، يصبح الواقع في نظر الإسلام ــ ليس هو الواقع البشري المفروض من قبل (صفوة ممتازة) أو (طبقة كادحة) أو الواقع المادي المحسوس القصير النظر ، وإنما هو الواقع الأرضي الذي لا ينفصل عن الواقع

السماوي بحقيقته العليا ، وروحانيته ، وإعجازه ، وقدره ؛ إنه الواقع الإسلامي الشامل لكل عناصر الواقع القائم ، واحتمالاته غير المنظورة أو المدركة . (١)

فحقيقة لا تقبل المراء ، أن الناس مختلفو الطباع والمشارب ، فمنهم الصالح والطالح ، والطيب والخبيث ، إلا أننا نريد مجتمعًا لا يميت البطولة الحقيقية للإنسان ، فيعيش الحياة بكل أبعادها ... فيكون كائنا يبحث عن ذاته ، تجاربه الإنسانية ، فيبدو قلقا ، ولكن هذا القلق يقضي به إلى الطمأنينة في أخر الرحلة ويندم على الخطأ ، إن كفر بالقيم مرة ، آمن بها مرات ومرات ، وإذا داعبته الأماني والأوهام جد في طلب هذه الأماني ، وسعى في تحقيقها ، في الإطار الصحيح ، وحطم الأوهام وداسها ، وإن تنكب الطريق في طلب الأماني ، عاود المحاولة مرة ومرات ، حتى تتجلى في نفسه الطمأنينة والرضا . فذلك هو البطل في المنظور الفطري الحقيقي الذي يسعى الإسلام إلى خلقه وتأصيله ، ويسعى كذلك الأديب أو المبدع المسلم إلى تقديمه كأنموذج حقيقي للإنسان الذي تتجاوز في نفسه المتقابلات..... (فألهمها فجورها وتقواها)(٢) لكن هذا الإنسان دائماً ما يسعى إلى إضاءة الأركان المظلمة في ذاته ، ويتجاور أو ينعتق من (الطينية) فيطمح إلى النور والنقاء ، التي تفرزهما خاصية (الروحية)، فيقف في ملتقى هذين العنصرين (نقطة وسط)، تلتقي فيها الروح بالجسد

---

(١) الواقعية الإسلامية ص : ١٧ ، ٣٣ بتصرف أحمد بسام ساعي ــ دار المنارة ــ أولى ــ ١٩٨٥ــ جدة .

(٢) سورة الشمس آية (٨) .

، فتفرز هذا الإنسان المثالي في نظر الإسلام ، هذا النمط الذي أراده الإسلام ، وكلفه خالقه بمهام العمارة الكونية ... ولكن هذه الشخصيات المتهافتة المتهرئة ، التي يصنعها الأدباء الذين يلهثون وراء هذه النماذج الشائهة ، هذه الشخصيات سرعان ما تهوي وتغيض وتنتهي من حياتنا إلى الأبد ، وتطفو على بساط الواقع هذه الشخصيات القادرة على سبر أغواره وتشكيل هويته ، وقادرة على التعبير عن آماله وآلامه ، فتترجم هذه الآمال أو الآلام إلى مواقف عظيمة ومؤثرة في شباب الأمة الإسلامية ، لاسيما إذا كان أدبنا ينتمي للأب الروحي للفكر الإبداعي ــ الإسلام ــ فيكون هذا الفكر بمقوماته المختلفة منطلقا لهذه الشخصيات البطولية الواعدة ، التي تصدق في التعبير عن واقع حياة الأمة واستيعاب حركة التاريخ ، محملة بزاد العقيدة والفكر الباني ، فيصلب عود شبابها الواعد ، فيحمل الأمانة ويسعى نحو تحقيق توازن اجتماعي ، منبثق من رغبة أكيدة في البناء والتواصل الحضاري الملتحم مع الحضارات الأخرى ، على اختلاف هوياتها، متسلحا بهذا الرافد الإيماني الذي يمكنه من الصمود في وجه هذه التيارات والأعاصير المتدافعة التي تواصل انفضاضها دون تريث أو هوادة ، من كل صوب وحدب ، على هذه الطاقات الحضارية الفاعلة طاقات أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان وزمان !! .

فالإسلام بوصفه دينا يتواصل مع الناس في الحياة لديه من المعطيات الإنسانية والحضارية ما لو استغلها الإنسان ، لأضحى نموذجا مثاليا في هذه الحياة ،، فالدين الحقيقي هو الذي يعتق الإنسان من التردي والتشتت والانحراف ، والعبادات المتعددة التي يقدمها الإسلام للبشر ، ما هي إلا تجارب حياتية كبرى ، قائمة على التوازن الفذ العجيب بين الأخذ والعطاء ،

فالإنسان يبلغ قمة إنسانيته ، عندما يصل تلك النقطة التي يحقق منها التوازن ، فكل نشاط أو مفردة من مفردات العبادة الإسلامية بشتى مكوناتها الإيمانية ذات فاعلية ، أو مردود إيجابي في كل ذات المسلم ، كون إيماني ، يضئ بالفضائل والقيم السامية التي تطبع هذه الشخصية بطابع إنساني يمتاز فيه المسلم عن غيره من الشخصيات الأخرى التي تموج بها الحياة ، فيبلغ أقصى درجات الانسجام والاتزان النفسي ". (١)

هذا الإنسان ، إفراز هذا الانبعاث الحضاري هو النموذج الذي يمكن أن يكون بطلا حقيقيًا ، ولا يضيره كما قلنا ــ الانحراف أو الانفلات من هذه القيم ، لأي سبب ما ، إذا ما استطاع أن يؤوب إلى رشده ، ويعود إلى حقيقته ... وهنا ، تصبح المهمة أكبر على المبدع فإنه يهيئ له أسباب العود الحميد ، ولا يغريه بالعدو وراء الشهوات ، أو يزين له الانفلات ، لكنه يصور كل هذا على أنه لحظات ضعف أو سقوط ، أو غيبة مؤقتة عن الحقيقة ... إلا أن الحقيقة ساطعة ... سرعان ما ينجذب إليها ... ويستقيم في الإطار الحقيقي الذي صنعته فيه الفطرة الحقيقية ، وهذا ليس حلمًا بعيد المنال ، فشواهد التاريخ والواقع الحضاري للإسلام قَدَّمَا نماذج رائدة لرجال تضيق الآفاق الفسيحة عن استيعابهم في كل مكان وزمان ... فالبطل المسلم : هو النموذج البشري الذي يتعامل مع مقدرات الأمة بإخلاص ووعي ويقين وينبض قلبه بحب الخير للإنسان ... لجميع البشر ، كل البشر ويؤمن بالعدالة والقيم الأصيلة من الخير والجمال والحب ، بين

---

(١) الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي ص ٧٢ د / عماد الدين الخليل ــ مؤسسة الرسالة ــ ١٩٧٧ ــ بيروت .

الجميع لا يفرق بين هذا أو ذاك ، يسوسه الإسلام بمنهجه ودستوره القويم، في صلاته ومعاملاته مع أخيه المسلم وغير المسلم . سيما ، إذا كان إسلامنا يقدم منهجا ، ودستورا حيويا على الدوام ، قادرا على مخاطبة الناس في كل زمان ، مهما اختلفت لغاتهم أو أجناسهم أو بيئاتهم ، يتسع صدره للجميع دون حجر أو قسر ، ويطرح منهجه الرباني في سياسة الحياة ، وتشكيل معاملات الإنسان مع أخيه الإنسان ، وكذا الكون والحياة بجميع مقوماتها وطاقاتها، دون النظر إلى الجنس أو العقيدة .

فالأديب العظيم ، هو الذي يستطيع أن يتخذ موقفا أو تصورا فكريا نابعا من تصور صحيح ، تجاه مجتمعه ، فلا يقوم بتصوير ما عليه الواقع بحجة الواقعية دون تغيير أو تعديل ، بل يقوم بتشخيص هذا الواقع ، ومحاولة سبر أغواره ، ومعالجته في إطار من هذا التصور الصحيح ، " فيحاول عبر الأشكال الفنية القادرة أن يفسر ويحلل ، وينقد ويؤثر ، ويزرع الأمل في النفوس ، موحيا إليهم بالحياة الفاضلة ، التي يطمح إليها الإنسان ، وداعيا إلى تأكيد التجربة الحضارية الفذة لرؤيته في صناعته للمجتمعات الفاضلة .. فإن صدق التعبير ، لا يعني الرضا بالواقع ، المرير وتكريس ما هو كائن .. إن تجسيد المأساة على أسس ومقاييس إلهية ، موضوعية هو الصدق ، وإن شفاء الأرواح والقلوب والعقول هدف أسمى وبداية صحيحة ، وأن إزالة الأنقاض والخرائب ، تمهيد لبناء صحي شامخ هو الحل . ومن ثم،لم يُوظَف الأدب الصحيح في تأريث العنصرية أو تكريس الطبقية أو الإباحية ؛ لكنه دائمًا وأبدا ، مِشعل حق ، ومبعث هداية ، وعامل بناء

وسعادة ورفاهية وطاعة وتآلف وتراحم..."[1] فضلا عن أن الإبداع الأدبي ينهض على الاختيار والانتقاء ، ولا يقوم أبدا على النقل الفوتوغرافي عن الواقع أو الحياة .

فالبطل في الرواية ؛ (تاريخية أو واقعية) ، هو الذي ينهل مقوماته ومعطياته من التراكمات الحضارية والفكرية في المجتمع الإنساني ذي الخصوصية الثقافية البانية ، بوصفها منابع حضارية تصنع المنهج الصحيح لبناء الإنسان الحضاري ، وهذا الكم الهائل من التراث الحضاري للأمة في وقائعها المتنوعة والباهرة ، والمترعة بأرقى وأجمل المعاني الإنسانية السامية ، والقيم الناصعة ، بوصفها منبثقة عن عقيدة حضارية بانية (الإسلام) ، تتعاون فيما بينها ، فتفرز هذا النبت الطيب ،الذي يستوي على سوقه في هذه التربة الخصبة ، من تلك الأرض الطيبة ... فيضئ ما بين جنبات الحياة ، ويدعو إلى التفاؤل ، وينبذ العداوة والبغضاء والتآمر ، وينأى عن النقائص والدسائس ، ويلجم نفسه بلجام الخير والحب والعدل والفضيلة ، فيرعوي عن الدنايا والنقائص ، فيتمثل كل هذه القيم الإنسانية الرفيعة ، التي تنتج مجتمعا يدنو من دائرة النظافة والرقي ، لديه القادرة على استجابات حياة خاصة ؛ ومحققا " لاستجابة حاجات المجتمع والأمة وفق نواميس تكوينها التي قامت عليها ، وينبعث في وقت الأزمة من أعماقها ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ، ويقود أتباعه إلى مرحلة

---

(١) آفاق الأدب الإسلامي ص ١٠٣ بتصرف. د. نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة – أولى – ١٩٨٥م – بيروت .

جديدة من مراحل العمل البناء) . [١]

وكُتَّاب الرواية في الأدب العربي ، الذين بهرتهم النماذج الإنسانية في المجتمع التاريخي ، واتخذوا من منهج الإسلام تصوراً فكريا ، ومنهجا إبداعيا ، حاولوا من خلاله تقديم إضاءات إبداعية قادرة على سير أغوار هذا الواقع الحضاري ؛ الذي يعيشه ما يقرب من ثلث سكان العالم قلة ؛ قلة لكونهم يسلكون طريقا وعرا تنتصب على جانبيه كثير من العوائق والمثبطات التي ليس مجالها هنا ، ولكن على أية حال ،في مرحلة الصحوة الإسلامية في عصرنا الحديث، زخرت خارطة الإبداع الأدبي بكثير من المعالجات الأدبية الفذة لبعض القضايا الإسلامية ، على يد المُخلِصين من أبناء الأمة ؛ المبدعين ، ممن حملوا على عاتقهم الدعوة إلى القيم السامية ، والأخلاقيات النبيلة ، خلال إبداعاتهم على الرغم مما يُوَاجَهون به من الصمت المريع تجاه حركة إبداعهم !!، فلم تأخذ هذه المحاولات الإبداعية الفريدة حظها من الدعاية الكافية ، أو التناول النقدي المنصف ، فما كان جزاء إخلاصهم لدينهم وأمتهم وقضايا مجتمعاتهم ، إلا الصمت والإغفال ، بل والتغاضي إن لم تكن الحرب ، من الأدباء المرموقين ، والصفوة من النقاد في عالم الإبداع الأدبي ، خاصة من الذين تهيأت لهم فرص تبوء منابر الفكر ، والنقد والإبداع ومنافذ النشر والانتشار في عالمنا العربي والإسلامي !! .

---

(١) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام ص ١٤٩ ــ أنور الجندي . مجمع البحوث الإسلامية – سلسلة البحوث الإسلامية – العدد (٥١) السنة (٤) – جمادى الأولى ١٣٩٢هـ – يولية ١٩٧٢م ـ القاهرة .

والأديب (علي أحمد باكثير) يعد من هؤلاء القلة من المبدعين الذين أحسوا بمسئولياتهم تجاه هذه الأمة ؛ تجاه آلامها ، وقضاياها ومشكلاتها ، وآمال أبنائها وطموحاتهم في العصر الحديث ، فراح يشرع قلمه المخلص في وجه التخاذل الحضاري الذي منيت به الأمة في وقتها الحاضر ، فما كان منه إلا أن ينبش في تاريخ الأمة وتراثها الحضاري ، وينفض الغبار عن نماذج إنسانية حضارية ، استطاعت بفضل التزامها ، ومسئوليتها العقدية ، أن يصيب أديبها هدفين في وقت واحد :

الأول : هو تعريف النشء المسلم بحضارته ، ونماذجه الإنسانية الفذة في أوج قوتها ، وازدهارها الحضاري ، ومدى تأثيرها في حركة التاريخ الإنساني والحضاري ، فتكون هذه النماذج وقودًا ، يمد الأمة بطاقات حضارية وإنسانية وثقافية هائلة .

والآخر : هو محاولة لصنع نوع من التمرد على هذا الواقع البائس وتحطيم هياكله ، والارتقاء فوق أشلائه ، كي نبني حاضرًا مزدهرًا ، يستوعب طاقات أبنائه المتطلعة نحو مجتمع (مثالي) ، بمفهومه الإنساني ؛ القادر على تخطي هذه المراحل المهترئة ، وهذا الواقع الخرب ، المترع بالخرافات ، من حياة الأمة التي اتسمت بضعف فاعليتها الحضارية ؛ لأسباب مختلفة ليس هذا مكان ذكرها .

ومن منطلق هذا الثراء التاريخي وهذه المسئولية الحضارية، اتجه الأدباء نحو التاريخ يجادلونه ويتحاورون معه ويوظفون أحداثه وشخوصه في إبداع ما نسميه بالرواية التاريخية من أمثال جورجي زيدان في رواياته المسماة بـ " روايات تاريخ الإسلام " ، وعبد الحميد جودة السحار في رواياته التي تتصل بالسيرة النبوية : " محمد رسول الله ﷺ والذين

معه " ، وسير الصحابة الأبرار مثل روايات " أبناء أبي بكر " ، " بلال مؤذن الرسول " ، " سعد بن أبي وقاص " ، " حياة الحسين " ، " عمر بن عبد العزيز " ... هذا بخلاف ما قدمه للأطفال من قصص تستلهم حياة الأنبياء والسيرة النبوية ، وسير الخلفاء الراشدين . هذا بخلاف ما قدمه الأديب (علي أحمد باكثير) عبر محاولاته الرائدة في روايات : "سيرة شجاع "و " وا إسلاماه " و " الثائر الأحمر " .. حيث يقدم نماذج إبداعية تحاول أن تقدم منهجًا أو رؤية إسلامية ، في معالجاته لما يعتلج في المجتمع الإسلامي والعربي من مشكلات سياسية أو عسكرية أو اجتماعية أو اقتصادية ، فكانت وهذا ما عني به كثير من المبدعين أمثال الأستاذ الأديب المرحوم (محمد عبد الحليم عبد الله في رائعته : (الباحث عن الحقيقة) ، والأديب : نجيب الكيلاني ، في روايات عدة منها : (نور الله و قاتل حمزة ، عذراء جاكرتا ، ليالي تركستان ، ونور الله ، ورحلة إلى الله ، وطلائع الفجر ، نابليون في الأزهر ، ومواكب الأحرار ، عمر يظهر في القدس ، عمالقة الشمال ، اليوم الموعود أكثر من ثلاثين رواية أدبية مصنفة في إبداع الأدب الإسلامي .[١]

---

(١)) فضلا عن مجموعات من القصص القصيرة الإسلامية مثل : (دموع الأمير أو رجال الله ، فارس هوازن ، غيرها).. ...، كما عني الكثير من الكتاب بالتاريخ المصري القديم (الفرعوني) ، والاجتماعي الحديث : كـ " نجيب محفوظ " و " يوسف السباعي " ، " سعيد العريان " و " علي الجارم " و " عبد الحميد جودة السحار " ، " جمال الغيطاني " وغيرهم من مبدعينا في عالم الإبداع في الأدب العربي الإسلامي .

كل هذه الأعمال الإبداعية التي تعلي من شأن القيم الإنسانية الحضارية في تاريخنا الإسلامي عبر أحداثها وشخصياتها، تدعونا لمواصلة الجهد في تقديمها إلى الشباب المسلم في كل مكان في العالم ، حتى يتعرف هذا الشباب المبهور بالآداب الأجنبية ، ونماذجها المنحلة . إن أدبنا ؛ أدب الأمة العربية الإسلامية ، قادر على تقديم البديل الأصلح والأنفع ، فتسد هذه الذرائع التي يتذرع بها هؤلاء الشباب ، في كونه لم يجد النماذج المشرقة في تراثه ، أو إبداعه .سيما ، إذا عرفنا أن هواية القراءة اضمحلت أو انكمشت أمام الهوايات الأخرى ، المدمرة لأخلاقيات شبابنا وقيمه الإسلامية الفاضلة في الآن نفسه ، مما يجعل الأمر مسئولية قومية ودينية على المبدعين والنقاد على السواء في عملية الإبداع والمتابعة النقدية لهذه الأعمال الإبداعية .

والناظر في هذه الأعمال الإبداعية ، يجدها تستلهم التاريخ الإسلامي للأمة ، وليس هذا عجزا من هؤلاء المبدعين ، أو هروبا من مشكلات الواقع الراهن ، إلا أن هذه النماذج الإنسانية التاريخية الإسلامية ، ذات نكهة خاصة ، بعيدًا عن المزايدات أو المراهنات السخيفة ، مما يتلظى به الواقع من نماذج مسخها الغزو الفكري ، والأدبي والثقافي بعامة لاسيما في ظروف زمانية منيت فيها الأمة بالانتكاسات الحضارية والسياسية والعسكرية فلم يعد لها من الإسلام في كثير من الأحيان ، إلا ثيابه ، أو لغته، أو أشياء تافهة ، لا تنهض به أنموذجاً إسلاميًا واعيًا ، أو قادرا على مسئولية التبليغ الإسلامي ، وتحمل أمانة الخلافة الحضارية في الحياة .

الكاتب " باكثير " اهتم بإبداع الرواية التاريخية لما تمتاز به من سمات فنية وموضوعية ، جعلتها قماشة فسيحة ــ إذا جاز التعبير ــ تتسع

للصراع الدرامي ، الذي يعني المبدع بخلقه في العمل الروائي ... من ثم يستلهم عبرها الكاتب الأحداث والشخصيات من تاريخنا الإسلامي الفذ في مرحلة من أهم مراحله تأزمًا وتوترًا ، تضعنا أمام مواجهة حقيقية قائمة ، في عملية إبداع مثل هذه الروايات التي تعنى برصد الواقع ومواجهته بالتاريخ . مما يحفزنا ؛ لأن نوضح العلاقة بين الفن بعامة ، والإبداع الروائي بخاصة من جهة ، والتاريخ ، أحداثه وشخوصه من جهة أخرى ؛ فنرى مدى الفائدة التي يجنيها الفن في استلهامه أحداث التاريخ وشخوصه ، بوصفهما الأرض الخصبة لعملية الإبداع الأدبي ... من ثم ،كان لابد لنا من محاولة صنع هذه المقاربة النقدية للتعرف بهذه العلاقة ــ علاقة الإبداع بالتاريخ ــ وهل هذا يثري العملية الإبداعية ويحلق بها نحو آفاق جديدة ؟! أم أن هذا الاستلهام سيحد من عملية تحليق الخيال الإبداعي للقاص أو الروائي؟ ويحطم أدواته ويوقعه في المباشرة أو النقل غير المسئول ؟!! .

لعل كُتَّاب الرواية وعوا تميز التاريخ وثراء مادته ، وخطره في عملية الإبداع الروائي ، فانكبوا على دراسته ، ومحاولة الاستفادة من أحداثه ، حتى ليمكننا أن نزعم : أن الرواية التاريخية تمثل تيارا قويا وتشغل حيزا واسعا في خارطة الإبداع الأدبي في الأدب العالمي فضلا عن العربي أو المصري .

وإذا كان حديثنا يدور في فلك الرواية التاريخية في الأدب العربي ، فبالتالي يتمحور حديثنا حول التاريخ العربي والإسلامي منه خاصة ،فالتاريخ يعد المصدر الأكثر خصوبة من مصادر إبداع الشخصية في الإبداع الروائي ، حيث يهيئ المبدعين للانطلاق نحو عالمه ، وسير أغوار أحداثه وشخوصه ، فتضحى أحداثه حية نامية ، وشخوصه متفردة ، وإن

كانت ترتبط في كنهها بالأحداث التي ولدت من خلالها ، فعبقرية الأديب الروائي الذي يلجأ إلى التاريخ تكمن في قدرته على منح شخوصه ، أو " نماذجه الاجتماعية التاريخية تجسيدا إنسانيا حيا " [١] ؛ لأن الروائي الذي ينهل في إبداعه من أحداث التاريخ وشخوصه ، لابد أن ينصب اهتمامه على حياة الناس ، في الفترة التاريخية التي يتناولها ، ويعد ذلك " يجسد القدر الشائع في شخصية تاريخية ، ويبين كيف أن مثل هذه الأحداث ترتبط بمشكلات الحاضر ، إذن هي عملية متماسكة عضويا ، إنه يكتب من الناس ؛ من تجاربهم ومن أرواحهم " [٢] فيجد المبدع لدى التاريخ ، ثراءُ في الأحداث والشخوص ، يمده بطاقات إبداعية ، ربما لا يستطيع إدراكها في الواقع ..

والأديب عندما يلجأ إلى التاريخ ، لابد أن يعي جيدًا هذه المادة التي يتعامل معها في التخطيط الإبداعي لروايته ، لما للتاريخ من سعة وثراء في الأحداث والشخصيات . وعلى الرغم من هذا الثراء ، وهذه السعة التي ينبغي أن تمنح المبدع حرية الاختيار والحركة داخل إطار الحدث أو الشخصية ، إلا أن هذه الحرية محفوفة بالمخاطر ، إذ التاريخ محكوم بأحداث حدثت ولا يملك أحد تغييرها ، الأديب محكوم في الوقت نفسه بمقومات العمل الفني ، الذي يستعين بالتاريخ في طرح قضية تلح على مجتمعه المعاصر ، إن الذي يكتب عن التاريخ ، كالذي يسير على حبل

---

(١) اتجاهات الرواية المصرية ٢٣٥ د / شفيع السيد – مكتبة الشباب – ١٩٨٧م – القاهرة .

(٢) السابق ص : ٢٥ .بتصرف .

مشدود ، فوق حفرة عميقة ، فهو ملتزم بالتاريخ ، وفي الوقت نفسه ، مطالب بالتخلص من قبضته الحديدية . الكتابة عن التاريخ تستلزم وعيا بالاختيار ، ودقة في التعبير عن الحدث الذي يدعم مع غيره بناء الشخصية ؛ لأن الرواية التاريخية لا تزدهر ، أو حتى تنتشر ، إلا في ظروف خاصة يمر بها المجتمع ، فيعرض الأدباء التاريخ وما يزخر به من أحداث ، ونماذج ، ودروس ، ليؤنبوا الشعب الكسول ، ويحرضوه على التمرد والنهوض ، للتخلص من مفاسده ، حيث يكون التاريخ قدوتهم ؛ لأن التاريخ يصنع مواجهة مع الحاضر ... من هذا المنطلق تصبح الرواية التاريخية ، أو النموذج التاريخي ضرورة اجتماعية قادرة على التغيير الذي يعد وظيفة أساسية من وظائف الفن ، وليس ترفًا ثقافيا ، أو لهوًا يغري الشباب بالدعة ، والتهام أوقات فراغهم ، أو حتى كما يدعي البعض تعليمهم التاريخ من خلال هذا النوع الإبداعي . (١)

وإذا كان التاريخ عاملاً مشجعا لارتياد آفاق الإبداع ، نظرا " لسهولة

---

(١) كما كان يروج " جورجي زيدان " الكاتب النصراني الذي امتلأت رواياته بالأغاليط ، والاتهامات الباطلة ، لكل رموز الحضارة ، والعقيدة الإسلامية لاسيما الأبطال الذين صنعوا هذا المجد الحضاري للآمة ، في كل خطوة خطاها هؤلاء ، عندما كانوا يتوجهون إلى الدول والأمصار ، التي شرفت بالفتح الإسلامي ... فكان لهذا الكاتب النصراني المتعصب ، وجهة نظر أخرى ، في هذه الفتوحات ، وفي رموز هذه الفتوحات من الأبطال المسلمين ... الذين ألصق بهم مخازيه وهرطقاته الماجنة ، في الوقت الذي أسند فيه البطولات والقيم النبيلة ، لرهبان الأديرة والمسيحيين ، فضلا عن اليهود ... والمطالع لرواياته تصدمه هذه الافتراءات والأكاذيب المنسوبة زوراً وبهتاناً لهذه الشخصيات المسلمة في رواياته المختلفة .

التشكيل الفني لمادته ، دون أن يواجه المبدع بمعاناة الخلق الكامل الروائي في شكله ومضمونه" [١] ، إلا أن ذلك يستلزم من المبدع حسا خاصا ووعيًا فريدًا بما يقوم به ، من تشكيل لهذه المادة الهائلة من معطيات التاريخ ، فعندما يتمثل التاريخ في عملية الإبداع ، لا يعني هذا هروبا من الواقع الماثل أمامه ؛ يعايشه في إطار مجتمعه وليس خارجه ، " فما الواقع الذي نحياه إلا امتداد لهذا التاريخ " الذي يصطفي المبدع نماذجه منه ، فالتاريخ يستطيع أن يمنحنا خاصية فنية أو تقنية مهمة ، يمكن تسميتها بـ (الإسقاط) حيث يستدعي المبدع حدثا تاريخيا ، وقع منذ زمن بعيد ، أو يأتي بشخصية تراثية ذات ارتباط بأحداث تاريخية معينة . سيما الشخصيات العالقة بأذهان الأمة بسلوكيات أو أفعال عظيمة ، يحاول إسقاطها على أشخاص حاليين ما زالوا يعيشون واقعنا التاريخي . أو يتخذه المبدع رمزا للعدول عن التعبير المباشر ، فيعيد الوعي الحضاري للأمة ويوقظ مشاعرها نحو تاريخها ، ونماذجها الناضجة المشرقة ، ذات الحضور الممتلئ حركة وفاعلية في ذاكرة الأمة ؛ لتصوغ حاضرها على منواله ، من حيث القوة والحضارة ، ذلك أن التاريخ بمثابة ذاكرة الأمة ، وبقدر ما تسلم للأمة ذاكرتها ، وتحسن التعامل معها ، بقدر ما يمتد تأثيرها ، وتبرز قدراتها ، وتقوى شخصيتها "[٢].

---

(١) الواقعية في الرواية العربية ص ٨٥ د . محمد حسن عبد الله . دار المعارف ١٩٧١م. مصر .

(٢)المسلمون وضرورة الوعي التاريخي ــ عبد القادر عبار مجلة الأمة عدد (٤٢) جمادى الآخرة (١٤٠٤هـ).

فالروائي يلجأ إلى التاريخ ليربطه بما يحتمل ويقع في مسرح الحاضر ، من قضايا ومشكلات ، فيعبر خلالها عن آمال الأمـــة وطموحاتهـــا ، ذات الاتصال الوثيق بالحاضر المعاش باهتماماته وتعقيداته ، وكثيرا ما تتشـــابه هذه الأحداث والشخصيات ، فهناك " أمور مشتركة في الحياة تعلـــو فـــوق خصائص الزمان والمكان وتلك في الغالب هي الملتقى الذي يجتمـــع فيـــه المفكرون والكُتَّاب من كل جنس ، عـــــندما يســـتخدمون التـــاريخ فـــي الفن"(١).

وعلاقة المبدع الروائي بالتاريخ ، لا تقوم على القسر أو التكلف ، لكنها تقوم في مجملها على التفاعل الخالق ، بـــين ذات الأديـــب والحـــدث التاريخي أو الشخصية ، وذلك وفقا لوعيه الاجتماعي التاريخي بواقعـــه ، وبالدور الذي يؤديه في هذا السياق ؛ لأن الكتاب عنـــدما يقـــدمون هـــذه المحاولات يقدمون النماذج الرائدة لشعوبهم ، فتتبلور هويتهم ، وتســـتوي شخصيتهم ، فيتجهون نحو مسارهم الحضاري الصحيح ..

والروائي عندما يلجأ للتاريخ ، يستلهم شخوصه ، لا يكتفي بنقلها من مظانها التاريخية ، لكي يعرضها علينا دون هدف أو مغزى فني ، من هـــذا النقل ... فهذا مكانه كتب التاريخ لا الفن، بل إنه عندما يختار الشخصـــية التاريخية المناسبة، في إبداعه الأدبي، ينبغي أن تكون هذه الشخصية ذات دلالة نفسية أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية أو غير ذلك .. ثم يحـــاول أن يعرض تلك الدلالة في بناء فني متكامل ، تتحقق فيه الســـمات الفنيـــة

---

(١) الإسلام وحركة الحياة ص: ١٢٨ . د . نجيب الكيلاني . مؤسســـة الرســـالة – أولى – ١٩٩٠ – بيروت .

للرواية الناجحة ملتزما تصورًا صحيحا ، لهذه الشخصية في علاقاتها مع الناس الآخرين ، ومع الكون بكل ما يحوي من مخلوقات أخرى ، فيجئ العمل الفني متكاملاً ومتساوقا متميزا بالحيوية والصدق في إطاريه الفني والفكري ... " فإن كلمات الصدق والورع والشجاعة والإيمان إذا جاءت بمفردها عارية من الإشراقات الروحية (الجمالية) التي يشعها البناء الفني ، أصبحت مجرد كلمات مملة لا توحي بشيء " (١)

فالتاريخ – إذن – يمنح الأديب حرية من نوع خاص ، داخل الفضاء الروائي ، عند تشكيله وبنائه ، على النحو الذي يجعله قادرا على الصدع بالتغيير والتمرد المرجو منه ... فالفن والفنان ، بهذا المستوى الواعي بمضمون العمل الإبداعي ، " يجدان لنفسيهما الوحي في أحداث التاريخ وظواهره وأبطاله ، فيتخذان من هذه الأحداث / الظواهر / الشخصيات التاريخية ، نواة ، ينطلق منها خيالهما الفني الخلاق ، وينسجان حولها من رؤيتهما ورؤاهما الإبداعية ... وهنا يكون الخيال الخلاق لدى الفنان الذي يتصرف في الشخصية التاريخية ويعدها لخدمة غرضه ، مقيدا بالإطار التاريخي العام الذي يغوص خلال أحداثه وظواهره وأبطاله ، فيبدأ منها بالماثل تاريخيا وواقعيا ؛ لينطلق صوب الرمز المعنوي (المثال) ، ولا ضير أن يبتكر شخوصا وأحداثا فرعية في الإطار التاريخي العام لتحقيق

---

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية ص : ٢٥ د . نجيب الكيلاني– مؤسسة الرسالة – أولى – ١٩٩٠ – بيروت .

هدفه الفني " [١] ، على أن تكون الحقائق نصب عينيه ، والشخصيات في إطارها المرسوم ، والقائم فنيا وتاريخيا ..

وعلى ذلك فإن مراعاة أسس الإبداع الفني ، لا تعني إهدار الحقائق ، أو لي عنقها ، بما ينأى بها عن الصدق ، ويضعها في مكان يخرج بها عن الحقيقة التي يراها الفنان نفسه ... " فالكاتب بما هو فنان مبدع ، لابد أن يترك لخياله أن يلعب دورًا مهما في رسم الشخصية ، ورسمه للشخصيات ، يعتمد كثيرا على فهمه لشخصيته ، وعلى قدرته على تمثل دور الشخصية التي يريد رسمها ، وعلى تصور التصرفات التي قد تصدر عن شخصية من الشخصيات ، تحت ظروف معينة ، معتمدا في ذلك على القياس . ولهذا ، فإن حدود رسم الشخصية القصصية ، لا تقتصر على النطاق الذي تجول فيه الملاحظة المباشرة ، أو على المعلومات التي تنحدر إلى الكاتب من مصادره الثانوية ، بل يعتمد اعتمادا كبيرا على إدراكه لإمكانيات الشخصية الإنسانية ولطاقاتها الكامنة ، وهذا الإدراك يتوقف على فهمه لشخصيته ، وقدرته على استبطانها ، والفطنة إلى أحاسيسها الداخلية ".[٢]

من هنا ، يتعالق الفن مع التاريخ في إبداع الرواية ، فينظر الأديب إلى الشخصية مثلا ، وينفعل بها ، أو يتفاعل معها ، من زاوية خاصة لا نستطيع أن نفصلها عن مشاعر الفنان ومواقفه الذاتية وانتماءاته

---

(١) بين الأدب والتاريخ ص : ١٤ . بتصرف. د / قاسم عبده قاسم ... دار الفكر للدراسات والنشر –كتاب الفكر – عدد (٧)– أولى– ١٩٨٦ م – القاهرة .

(٢) فن القصة ص ٩١ ، ٩٢ محمد سوف نجم . بتصرف – دار الثقافة – دت – بيروت .

الفسلفية ، والعقدية ؛ بل ومزاجه الشخصي ، وتأثره بوجهة نظر ذات طبيعة متميزة . فهو يفسر التاريخ ، ويعلق عليه ولا ينقله .. من ثم ، يودع أفكاره في عمله الفني ، خلال هذا البطل أو ذاك الحدث التاريخي المقتبس ، أو قل المعدل عن طريق الخيال ، الذي يمنح الأديب القدرة على صياغة المادة التاريخية بصورة معينة ، وفق منطق معين ؛ لأنه يرتبط بعملية التشكيل في البناء الفني ، تلك التي تمثل قدرة الروائي على التخيل الإبداعي العقلي ، الذي يصوغ المادة التاريخية ، إذ تبقى الصورة التي يرسمها ، أو يتحكم فيها هذا الخيال الإبداعي ، الذي يصوره الاستدلال العقلي البحت . (١)

وهنا ، يلتقي عند هذه النقطة ــ المؤرخ بالروائي ، فكل منهما يرمي إلى رسم صورة تتألف من عدة عناصر بحيث تنطوي على حكاية أو قص الأحداث ، ووصف المواقف ، وعرض الدوافع أو البواعث ، وتحليل السلوك أو فعل الشخصيات في البيئة وانفعالها بالأشياء ... كما " أن كليهما يرمي إلى تقديم صورة كاملة من حيث التماسك والتناسق ، بحيث تبدو كل شخصية ، وكل موقف حلقة متصلة ببقية الشخصيات والمواقف ، لكي تسهم بتضافرها في تكامل أبعاد الصورة ، فنشعر من خلال تصوير كليهما للشخصية ، أنها ما كان لها أن تتصرف في هذا الموقف إلا بأسلوب معين ، ينبع من طبيعة الموقف التي يحيا فيه ، وإدراكها العقلي لهذا الموقف".(٢)

---

(١) نقلا عن الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ص ٨ . د / قاسم عبده قاسم ، د/أحمد إبراهيم الهواري – دار المعارف –١٩٧٩– مصر .

(٢) الواقع والتاريخ ص ٢٣٧ / اعتدال عثمان ــ فصول ٢/٣ يوليو ١٩٨٢م. مصر .

وليس هذا معناه : أن يسير التاريخ مع الفن في الرواية في خطين مستقيمين ، يتوازيان ولا يتقابلان ، فدرجات الوعي عند المبدعين تتفاوت بين " الاستغراق في الحدث التاريخي ، واستعادته في نسق جمالي يدل على الحدث / الشخصية كما وقع في الماضي ، أو تحويره بما لا يخرج به عن سياقه الأصلي . وقد يتصاعد وعي الكاتب إلى حد امتلاك نظرة نقدية تأملية تتيح له قدرا من الانفصال . ومن ثم، قدرة على ربط الماضي بالحاضر والوصول إلى القوانين الكلية ، التي تحكم التاريخ فيما نعرفه بفلسفة التاريخ ". (١)

فالتاريخ في جملته ، ليس هو الحوادث التي تقع ، أو الحروب والثورات التي تتقد فحسب ، إنما هو" تفسير لهذه الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة ، والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .. ولكي يفهم الإنسان (المبدع) الحادثة ويفسرها ، ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرية وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : غيبية ومعنوية ومادية ، وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقعها في مداركه ، ولا يرفض شيئاً من

---

(١) نقد الرواية في الأدب العربي الحديث ص ٦٢، ٦٣ . د . أحمد الهواري .- دار المعارف – ثانية – ١٩٨٣- مصر .

استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد " [١]

والوعي بالتاريخ ، يستلزم سبر أغواره وليس هيكلته وتشكيله في عمل يقلل من أهميته ودوره الفاعل ، في تنمية الفعل الحضاري على المستوى الرفيع . فالتاريخ هو وعاء لفعل الأمة ، وتسجيل لحركاتها ، ومدى فهمها لقيمها واستجابتها لها ، وقدرتها على تنزيلها على الواقع " .. فقراءة التاريخ دون القدرة على دراسته وتقويمه بشجاعة وأمانة وموضوعية ، لا تمنحنا الرؤية الكافية لقوانين السقوط والنهوض ، ولا تمنحنا التبيين والاهتداء والاتعاظ والوقاية الحضارية ، المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ*هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٢] .

فالإفادة من التاريخ، إنما تكون بالقدرة على معايرته ، وبيان (بؤر)الضعف والانحراف فيه ، وتحديد أسبابهما ، واكتشاف السنن التي تحكم الحياة والأحياء ؛ لتحقيق الدرس والعبرة ، للوصول ــ من ثم ــ إلى الحصانة الحضارية ، وتحقيق الاستجابة للتكليف الشرعي . [٣]

فالأديب عندما يتسلل في دهاليز التاريخ ، ينبغي أن يكون على وعي

---

(١) كلام مقتطف من مجلة الأمة – عدد (٣٨)/ – صفر ١٤٠٤هـ نوفمبر ١٩٨٣م.– وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – قطر.

(٢) سورة آل عمران : الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨.

(٣) قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي جزء أول للدكتور / أكرم ضياء العمري – من مقدمة كتاب الأمة الأستاذ عمر عبيد حسنه – كتاب الأمة – عدد (٣٩) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – قطر .

تام ، وإدراك واع ، بمهامه المنوطة به ، من خلال الطرح الأدبي للتاريخ ، أحداثاً وشخصيات ، فلا يسرف في المباشرة والوعظ ، حتى لا يحدث الانفصام بين عمله والذين يتلقونه ، ويأملون أن تتحقق سعادتهم ومتعتهم، من خلال معايشتهم لهذا العمل ، فعندما يضمر أحد الحِسَّين ؛ الفني أو التاريخي لدى الفنان ، يحدث هذا الانفصام الذي يورث العمل الفني الفشل ، أو الموت . فالعلاقة لابد أن تكون قائمة في وعي المبدع بين إبداعه ومادته التي تشكل هذا الإبداع ، وكلما قويت هذه العلاقة بين الفن والتاريخ بين الشكل والمضمون منحت العمل الإبداعي الحياة والتواصل ، والخلود في عالم الإبداع .

من خلال هذه العلاقة القائمة، بين الإبداع الأدبي والتاريخ، يصبح التاريخ مصدرا خصبا من مصادر الإبداع ، لكونه غاصا بالنماذج الإنسانية ذات الحضور الطاغي على مسرح الأحداث .

من هنا، وجد الأدباء أنفسهم مدفوعين نحو هذا الثراء، بوصفه مادة متسعة الجوانب رحبة الأبعاد ، تحدوهم دوافع فنية وفكرية ، تدعم العملية الإبداعية ، وتسهم في تشييد فضاءها الإبداعي عبر إتاحة " العثور على مادة أو موضوع يصلح نواة لعمل روائي . أو إحياءً للقيم والثوابت الحضارية للأمة في عهدها المشرق ، والمترع بقيم الحب والخير والعدل والحرية والفضيلة في أسمى معانيها ، المحصنة بحضارة الوحي والوعي . أو محاولة لبعث النماذج الحية ذات العطاءات الحضارية الحية في تاريخ الأمة الذي أهيل عليه التراب . أو إظهارًا لمواقف مشرفة ، وجوانب حية وحضارية في تاريخنا العربي والإسلامي . سيما ، ونحن نعيش واقعا مترعا بالهزائم والتضعضع الحضاري على كافة المستويات السياسية

والعسكرية والاجتماعية والثقافية والعلمية .أو تحقيقًا لنوع من التواصل الفني ، الذي يتجاوز الطرح المباشر للقضايا التي يزدحم بها مسرح الحياة . أو حماية لوجودنا الفكري والثقافي في " التراث " ، في مهب التيارات الوافدة ؛ تيارات الغزو الفكري الأجنبي ... فوعينا بذواتنا ، يقضي حتما أن نعرف ماضينا ، وأن حياتنا اليوم لا يمكن أن تقوم إذا بترت منها أصولها ، فلا يجرؤ واع على الزعم : أنه بإمكاننا الاستغناء عن قديمنا (تراثنا) لا لكونه تسجيلا لوجدننا التاريخي فحسب ، ولكن كذلك لما له من أثر في تكوين ذوقنا ووجداننا على مر العصور وتتابع الأجيال .[١]

في ضوء هذا التصور الإبداعي لعملية بناء رواية فنية تستمد مادتها من التاريخ ، راح أكثر مبدعينا من الروائيين يمدوننا بفيض من طاقات إبداعية ، ينتخبون من النماذج والشخصيات ما يمكنها أن تتواصل مع المتلقين ، وهي تنبض بالأفكار والرؤى ، والحث المتواصل والدءوب ، على تغيير الواقع الذي يدعي أنه يُطَاول الماضي العظيم ... فالفن الحقيقي:" ما كان مزيجا من التعبير الناجح الذي يقيم بين ثناياه أفكارا حية، نابضة ، تتسم بالإيجابية المجدية " [٢] ، ومن ثم ، تنطلق الشخصية التاريخية من عالم " التاريخي "، إلى عوالم " فنية " مصورة ، ترفض القهر والتسلط ، وتحمل على جناحيها الدعوة للقيم والفضائل ، من حرية ، وخير، وعدالة ، وجمال . وتحفز على حسر الغبار الذي أهيل على حضارة

---

(١) قيم جديدة للأدب العربي ص ٨ ، ١٤ بتصرف . د / عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) دار المعرفة ــ أولى ــ ١٩٦١ ــ القاهرة .

(٢) مقدمة رواية اليوم الموعود ص ٥ د / نجيب الكيلاني .

الأمة ، فتتجلى النماذج النابضة الحية المشرقة ، والبطولات المضيئة في حياة الأمة ... فالإنسان في التصور الإسلامي ، هو غاية الأدب ، وحين يزدهر الإنسان في هذا العالم تتفجر إمكاناته وطاقاته الإبداعية وتتجلى رؤاه الفكرية ، فيتدفق عطاؤه في كل اتجاه ؛ حيا ، فياضا ، نابضا في مجتمعه ، في كل زمان وكل مكان ، فيحفز الآخرين على النهوض والتمرد ، على كل ما هو من شأنه أن يزهق روح هذا المجتمع أو يقضي عليه ؛ من مفاسد أو ضعف ، فيمحو الخراب ، ويقضي على الزيف ، فيطلع النهار حاملاً أملاً مشرقًا ، وطموحًا جديدًا ، قادرًا على البناء ومبشرًا بالازدهار .

فالاحتماء بالتاريخ ، أو محاولة البحث والتنقيب عن شخصيات أو بطولات قادرة على تقديم نموذج إنساني فريد، قادر على المواجهة . سيما ، في زمننا ؛ زمن الخنوع ، والانبطاح المشين !!؛ هذا الاحتماء يحقق المعادلة الصعبة ، في الزمن الصعب ، فيصبح هذا الإبداع ، طريقًا أو أداة للتواصل الفني والإنساني الذي يتجاوز الطرح المباشر للقضايا المحتدمة في الواقع .

من ثم ، تصبح مهمة المبدع لا تكمن في توصيل المعارف التاريخية ، أو تقديم صور " فوتغرافية " ميتة لأشخاص عاشوا في زمن سحيق ، أو حتى قريب ؛ لكنها (تكمن في تحقيق نوع من التأثير والجمالية) الذي لا يستطيع الفن أن يصنع شيئًا بدونهما ، أو يحظى هذا الإبداع بالإقناع لدى المتلقي ، ومحاولة التأثير به إلى الحد الذي يحقق قناعة ، بأننا : قادرون على إيجاد مثل هذه النماذج ، وإثبات ذلك للآخر أو مواجهته. سيما ، في صراعنا الأبدي مع القوى المناوئة في كل زمان ومكان ، الذين تداعوا علينا من كل صوب وحدب ، ينهشون لحومنا ، ويسرقون مواردنا ،

وينهبون أموالنا ، وأخيرًا يغروننا أو يدفعوننا للارتداد عن ديننا دون حياء أو هوادة .

ومن هنا ، يصبح ــ كذلك ــ تقديم مثل هذه الشخصيات ــ البطــولات التاريخية ــ في الإبداع ضرورة اجتماعية ، ومهمة قومية ، تحــتم علــى المبدعين ، تقديم النماذج الرائدة في تاريخ شعوبنا الإسلامية ، ذلك التاريخ المترع بالانتصارات ، والقيم الحضارية ، في محاولة لربط حاضــر الأمــة بماضيها ، وعبر هذا الربط ، تتبلور هوية شبابنا ، وتتجه أشرعتهم نحــو المسار الحضاري القويم ،من خلال صنع هذه المواجهة بين الواقع والتاريخ الحضاري .

الرواية العربية مليئة بهذه النماذج المشرقة المستدعاة مــن التــاريخ الإسلامي الزاخر ، والممتلئ بهذه البطولات النادرة ، والروائي القدير علي أحمد باكثير ازدحمت رواياته بهذه النماذج الناضرة والحاضرة بقــوة فــي تاريخنا الإسلامي سواءً تناولتها كتابات المؤرخين باستفاضة مثــل البطــل "سيف الدين قطز " في روايته الشهيرة :" وا إسلاماه " أو كانــت بطــولات مغمورة ، لم تتناولها كتابات المؤرخين ، بالقــدر الــذي يجلــي مواقفهــا التاريخية الرائعة ، على الرغم من أنها شخصية قادرة في أدائهــا علــى تقديم النموذج الإنساني الفاعل ، وتستطيل من خلال مواقفها قيم إســلامية أصيلة ، نحن أحوج ما نكون إليها اليوم ، مثل شخصية "شجاع ابن شاور" في روايته " سيرة شجاع " [1]

---

١) لي دراسة مستقلة عن هذه الرواية موسومة بــ " حركة البطل في الرواية الإسلامية :سيرة شجاع لباكثير أنموذجا "

وقد بدأ " على أحمد باكثير " بهذا الوعي الإبداعي لمعطيات التاريخ . سيما ، عندما يوظف في أعمال فنية ينطلق نحو الإبداع (الروائي التاريخي) فأنتج " سلامة القس " وهو ما يناسب كاتبًا مثله في مرحلة الشباب ، (يتعلق بالمُثل الدينية ، ويعيش بوجدانه أكثر مما يعيش بعقله)!!، ثم لفت نظره بعد ذلك تلك الأحداث العظام التي وقعت في التاريخ الإسلامي ، وكان عالَمُه مسرحًا لها ، فلم يجد مندوحة من استلهام هذا التاريخ والاتكاء على أحداثه وشخوصه . خاصة وظروف العالم الإسلامي في وطننا العربي ، كانت عند إبداع رواياته ذات تأثير عظيم في توجيه اهتمام الكاتب – باكثير– إلى طبيعة المشكلات التي يتناولها في رواياته ، فأصدر" باكثير" فى الأربعينيات ــ وتاريخ تلك الفترة يشير إلى الصراع القائم والمحتدم بين المسلمين العرب واليهود في فلسطين السليبة ، فضلا عن ازدحام ساحة الفكر آنذاك بالأيديولوجيات المتصادمة مع الإسلام كالشيوعية والرأسمالية ..فرواياته " وا إسلاماه " ، و " الثائر الأحمر " و " سيرة شجاع "، انعكاسا لهذا الصراع الدائر على مختلف المستويات السياسية والفكرية والاقتصادية ،كما أنها تكشف عن خبرته الفائقة بالنفس البشرية وطبائعها ، وسبر أغوارها في إطار من التصور المرن ، الذي يحدد علاقاتها الطبيعية بالكون ومفرداته الحية من الموجودات ، بوعي ويقظة تامة ، وكأن المؤلف بصنيعه هذا ، " يستنهض الهمم الإسلامية ، أن تتحرك لدفع أخطار التتار الجدد عن فلسطين كما فعل أجدادهم وأسلافهم من قبل ، إذ كانت الحمية الإسلامية ، والغيرة على دين الله دافعًا قويًا لتجميعهم

وتضامنهم أمام الخطر الواحد ، ولعل ذلك ما يوحى به نداء الغـوث : " وا إسلاماه " ، الذي اتخذه الكاتب عنوانًا لروايته " . [١]

ففي رواية " وا إسلاماه " نرى شخصية البطل الإسلامي " قطز " التـي أولاها الكاتب جل اهتمامه وصنعها على عينه حتى بدت " محاطة بهـالة نُورانية ، تستمد نورها مـن حـرارة الفكـرة الإسـلامية عـن الجهـاد الديني " [٢]

وباكثير يحتال ليرينا البطل الإسلامي خلال أداة فنيـة هـي " الرؤيـا " بوصفها تقنية فنية ، يطرح خلالها الروائي ، " رسالة البطـل ودوره فـي التغيير السياسي والاجتماعي الذي يمهد للإعداد العسكري والنصـر علـى التتار " .[٣]

هذه الرؤية التي رآها قطز في منامه ، ذهب يقصها على شيخه العز بن عبد السلام فقال : " أرقت البارحة ، ونابني ضيق شديد ، فقمت فتوضأت ، وصليت النفل وأوترت ، ودعوت الله ، ثم عدت إلـى فراشـي فغلبتنـي عيناي ، ورأيت وكأني ضللت طريقي في برية قفراء ، فجلست على صخرة أبكى ، وبينا أنا كذلك إذا بكوكبة من الفرسان قد أقبلت يتقدمها رجل أبيض جميل الوجه على رأسه جُمَّة تضرب أذنيه ، فلما رآني أشـار لأصـحابه ، فوقفوا ، وترجَّل عن فرسه ، ودنا مني فأنهضني بقـوة ، وضـرب علـى صدري وقال لي : " قم يا محمود فخذ هذا الطريق إلى مصـر فسـتملكها

---

(١) اتجاهات الرواية ص :٣٩ .

(٢) الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ص: ٩٢.

(٣) السابق نفسه ص: ٩٦ .

وتهزم التتار " .

فعجبت من معرفته اسمي، وأردت أن أسأله من هو ؟ فما أمهلني أن ركب جواده فانطلق به فصحت بأعلى صوتي : " من أنت " ؟ .

فسكت الشيخ هنيهة متعجبًا من الرؤيا ، ثم قال : " ما زلت تفكر في الملك وهَزْمِ التتار يا قطز حتى أتاك النبي (ﷺ) فبشركَ بهما ، إنها رؤيا عظيمة كما ذكرت ، فإن تكن صدقًا ، فستملك مصر حقا وتهزم التتار ، فإن النبي (ﷺ) يقول :" من رآني فقد رآني حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل بي"[(١)].

فالتصور الإسلامي الذي يصدر عنه الكاتب ، وإيمانه بفكرة الجهاد الديني ، جعلاه يطوع الرؤيا بمفهومها الفني كي تتلاءم مع التصور الإسلامي للرؤيا ، فالرؤيا الصالحة دائمًا ،تكون بمثابة البشرى الإلهية بخير قادم لمن رآها . والبطل الذي يرى هذه الرؤيا شخصية يعدها الرَّاوية لتتبوأ مكانًا عظيمًا في تاريخ الأمة الإسلامية . فالرؤيا ــ بوصفها تقنية إبداعية ــ تدفع نحو " على تطوير الحدث الدرامي ؛ ليواكب ما يطرأ على الشخصية من تغير أو تغيير وتطور لتقنعنا فنيا [(٢)]، شخصية إسلامية ذات مقومات إيمانية جعلت الرسول ﷺ يُحملها أمانة خلاص الأمة من الخطر الداهم (التتار) ... والرسول (ﷺ) من رآه فقد رآه حقيقة .. " يلجأ الروائي للحلم يبث فيه وعيه اليقظ بما حوله في نومه حيناً وفي يقظته حينا آخر، وتعكس

---

(١) والإسلاماه ص :١٠٣ ، ١٠٤ على أحمد باكثير دار مصر للطباعة ــ د ت ــ القاهرة . والحديث رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي كتاب الرؤيا المجلد الخامس ص ٢٢ برقم (١٤).

(٢) الرواية التاريخية .... ص ٩٦ . سابق .

من خلاله حالات اليأس والألم والشعور بعدم الاستقرار النفسي الذي كانت تعانيه الشخصيات ، وتستتر خلف قناعها لتؤدي رسالة خاصة ترتبط بطبيعتها ذات السمات النفسية والسلوكية والاجتماعية التي لا يستطيع الرجل التعبيرعنها ، وهو ما دفعه إلى شحن شخصيات روايته بطاقات لغوية وتعبيرية مترعة بمشاعر اليأس والقلق والخوف التي ولدتها تعقيدات الحياة وتغيرات المجتمع . إن فيضان الشعور وسؤال الذات والخوف من المستقبل هي بمثابة مستويات نفسية هيمنت على الروائي بصورة لا تقلل من وظيفتها السردية التي أعلنت فيها انتصارها للحقيقة"[١].

ومن ثم ، سنرى من مواقف هذا البطل ما يجعله أهلا لحمل هذه الأمانة التي كانت نفسه دائمًا تتوق لتحقيق تبعاتها .. فعندما سأله الشيخ عن :" ماذا يصنع لو تحققت رؤياه هذه ، وصار ملكًا على مصر ؟ . أجاب : سأرجع إلى رأيك في كل شئون ملكي ، فأقيم الشرع ، وأنشر العدل ، وأحيي ما أمات الناس من سنة الجهاد) [٢]

وما يفعل ذلك قطز ــ لو تحقق حلمه و ملك مصر ــ إلا من وعيه بدينه الذي خلقه هذا الخلق العظيم !!، وكأن الرجل ينظر بعين الواعي بعلل الأمة وأمراضها في شتى شئون الحياة ، وثدرك بأنه لن تشفى هذه الأمة وتسترد عافيتها وتصح إلا بإقامة شرع الله ونشر العدل وإحياء ما أماته الناس من سنة الجهاد ..

---

(١) الرواية النسائية السعودية خطاب المرأة وتشكيل السرد ص: ١١٢ بتصرف – سامي جريدي – الانتشار العربي– أولى – ٢٠٠٨م – بيروت

(٢) وا إسلاماه ص : ١٠٥ .

وعندما تحققت له هذه الرؤيا التي بايعه فيها النبي (ﷺ) ، واعتلى سرير الملك في مصر ، ووجد بعض الغضب من بعض الأمراء ، شرح لهم وجهة نظره :

" إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادر ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا في السلطنة مَن شئتم ، وإذا كان فيكم مَن يرى نفسه أقوى مني على الاضطلاع بهذا الأمر ، فليتقدم إليَّ لأحله محلي ، فيعفيني من هذه التبعة العظيمة ، ويتحمل مسئولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله " (١) .

فقطز لم يخلع السلطان المنصور حاكم مصر آنذاك طمعا في ارتقاء كرسي الملك ، أو السلطة في مصر ، ولكن ما صنع هذا إلا لتخوفه من انضمام مَلِك دمشق إلى التتار ، ومعاونتهم في مباغتة مصر ، والقضاء عليهم ، وبهذا تكون ضاعت بلاد الإسلام ، فلم يكن طامعًا في شيء مما يجول بخواطرهم ، ولو كان الأمر كذلك لما أَحَلَّ نفسه من أمر القيادة إذا وجدوا فيهم من يستطيع تحمل هذه الأعباء !! فيتحمل أمانة المحافظة على بلاد الإسلام أمام الله (ﷻ) .. ولقد صحت وجهة نظره بدليل أن صاحب دمشق فاوض التتار ، ليساعدوه على غزو مصر ، مما شق على الملك المظفر " قطز " فدعا السفير الشامي ، وقال له : أما يستحي صاحبك أن يستنجد بنا على عدو الإسلام ، ثم يستنجد به علينا ، إذا لم يكن عنده إسلام، فلتكن عنده مروءة ... أيرضى لنفسه ولدينه أن يتطوع لأعدائه وأعدائنا وأعداء الإسلام فيعينهم علينا، ويمهد لهم السبيل لغزو بلادنا ،

---

(١) وا إسلاماه ص : ١٦٩ .

والقضاء على ما بقي فيها من دين وإيمان ؟ ... والله لئن لم يكف عن خيانته للدين لأسيرن إليه فأحطمنه قبل التتار ". (١)

فـ "قطز "لم يقرع الرجل ولم يلمه إلا لكونه انضم إلى أعدائه وأعداء الإسلام قاطبة ، فإن ما يعنيه قبل كل شئ ، هو أن تبقى أرض الإسلام حرة مصونة ؛ يتمتع أبناؤها بالحرية التي يكفلها لهم دينهم الحنيف ، إذن ففي ضياع هذه البلاد ، ضياع للدين والإيمان في البلاد . والعدو يضمر عداءه المستطير للدين قبل كل شيء ، .. فالعقيدة وما تصنعه من معطيات حياتية سامية هي التي تحرك قلب ووجدان هذا البطل العظيم قطز ، وتحمله على هذا الوعي بمهمته العظيمة ألا وهي جهاد التتار ومن يتحالف معهم ..

وعندما أرسل هولاكو (قائد التتار) إلى مصر رسلاً يحملون كتاباً بأمر قتالهم لجند مصر ، استشار السلطان " قطز " الأمراء فيما يجيبُ التتار به ، فأشار معظمهم أن يتقوا شره ، ويتفقوا معه على مال يؤدونه إليه كل سنة ، وأنه لا فائدة من مقاومة التتار !!... فما كان من الملك سيف الدين قطز البطل المسلم إلا " أن يغضب غضبًا شديدًا ، وأحمر وجهه حتى كاد الدم ينبثق منه ، وجعل يقول بصوت أجش : إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢) وأنتم تريدون منا أن نعكس الآية ونقول : " حتى تعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ؟!! ، "... ثم قام إلى كبير الجماعة فاختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه ، وهو يقول : " إن السيف الذين يجبن حامله على القتال ، لخليق

---

(١) وا إسلاماه ص : ١٧٠.

(٢) سورة التوبة من الآية : ٢٩ .

أن يكسر هكذا ويلقى في وجه صاحبه" !. [1] .

فالبطل العظيم ؛ " قطز"، لم يخنع ولم يذل أمام صلف التتار وغرور التتار ، أو يخنع لأمرائه الذين أشاروا عليه بمهادنتهم ، كيف ذلك ؟ وهو المسلم الذي تربى على الأنفة والشجاعة والإقدام ، رباه هذا الإسلام الذي صنع الأبطال طيلة القرون التي سبقته ،ونشَّأ أتباعه في أحضان حضارته الإنسانية البانية التي لا تعرف الذل أو الخضوع أو الجبن إذا ما اشتد الخطب ، كيف يتخلى عن هذا الكم الهائل من المعطيات الحضارية والقيم الإنسانية التي بثها الإسلام في روحه ونفسه ؟ وإلا ما كان أهلا لرؤيا النبي (ﷺ) ، و لا جديرا بدعاء شيخه الثائر العز ابن عبد السلام أن يحققها الله له ، فبأي وجه يقابل هذا النبي وذاك الشيخ ؟؟!!!، اللذان توسما فيه الخير والشجاعة والمروءة والحب والقدرة على نصر هذه البلاد وإقامة دين الله وشرعه بين مسلميه ، وأين يضع أمانته التي حملاها إياها على عاتقه من يومها ؟ .

بهذا التدفق والحيوية والعزم الأكيد ، جهز السلطان قطز جيشه ، وسار إلى التتار وهاجمهم في المعركة الشهيرة في " عين جالوت " ، حيث أبلى هو وجنوده خلال المعركة بلاء حسنًا ، وأظهرهم الله على عدوه وعدوهم ، فأحرزوا النصر المبين ، وتجرع التتار كأس الهزيمة التي أنهت مطامعهم في بلاد المسلمين وارتدوا على أعقابهم خاسرين !!، فما كان من البطل الإسلامي العظيم سيف الدين قطز " إلا أن يخر ساجدًا لربه ، شاكرا لما اجتباه من أنعمه ، وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تتحادر على لحيته

---

(١) وا إسلاماه ص : ١٨٠ .

حتى سلم من صلاته ، فامتطى صهوة جواده ، وخطب في جيشه قائلاً : أيها المسلمون إن لساني يعجز عن شكركم ، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى ، لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله ، فنصر قليلكم على كثير عدوكم ، قال تعالى : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1] ، وقال عز مِن قائل : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [2] .

إياكم والزهو بما صنعتم ، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله ، إنه ذو القوة المتين ، وما يريكم ؟؟ لعل دعوات إخوانكم المسلمين على المنابر في الساعة التي حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم ، يوم الجمعة في هذا الشهر العظيم ، شهر رمضان ، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التي بها ضربتم ، والرماح التي بها طعنتم ، والقسي التي عنها رميتم ، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد ، وإنما بدأتموه ، وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم ، حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده ، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ألا فترحموا على إخوانكم الذي علم الله ما في قلوبهم من الإيمان والخير، فاختار لهم الشهادة والجنة ، واختار لكم النصر والبقاء ، لتعودوا للجهاد في سبيله ، وما عند الله خير وأبقى " .[3]

بهذا الحديث يعزف البطل سيمفونية رائعة من سيمفونيات الفن الرفيع

---

(١) سورة محمد من الآية : ٧ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٤٩ .

(٣) وا إسلاماه ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

الذي يحقق رؤى إنسانية وحضارية تكشف عن قناعات فكرية جمالية باهرة ، فإنه يحسم مجموعة من الأمور التي ينبغي للمجاهد المسلم أن يعيها جيدًا ، فالنصر من عند الله ، وما هم إلا أداة حققت هذا النصر ، فلا ينبغي أن يفتنوا بما أحرزوا من نصر!! فإن دور الدعاة والمخلصين من أبناء الأمة هناك في مصر ، لم ولن يَقل عن دور من حاربوا، بل ربما يفوق ما صنعته أسلحتهم على مضائها !!، وأن طريق الجهاد في الإسلام ما يزال ممتدا في جميع الاتجاهات في الحياة ، سواء في الحرب حتى تخلص للإسلام جميع دياره ، أو في السلم .. فالرسول (ﷺ) فيما نسب إليه قال عند رجوعه من إحدى غزواته ، أو كما قال (ﷺ) : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، ألا وهو جهاد النفس" [1] ؛ النفس الإنسانية الأمارة بالسوء ، وأن من قُتِلوا من إخوانهم لا يقلون عنهم شجاعة ، ولكنه اختيار الله لهم ، لعلمه بما في قلوبهم من الإيمان والخير والرغبة في لقائه ، فاختارهم شهداء، هناك أحياء عند ربهم يرزقون .

فأمارات النجاح الإبداعي لباكثير في هذه الرواية لا تعد ، ولعل أهمها نجاحه في توظيف الحدث الذي كان جزءً مهما من بناء شخصية البطل التاريخي قطز ، والمصداقية الفنية في بناء هذه الشخصية وانبثاق رؤاها وأفكارها من الرؤية الحضارية للإسلام الذي يشكل الهوية الإنسانية للبطولة في الفن الذي ينطلق في تصوراته من القيم الإنسانية لهذا الدين العظيم ، فأثرى الروائي عبر هذا التصور شخصيته ، ومنحها حيوية وتتدفقا ، وأفقا فسيحا في إبداعه الروائي ، حيث استطاع بمقدرته الإبداعية أن يجلى هذه

---

١) رواه البيهقي بسند ضعيف . وقيل ليس بحديث . لكن معناه صحيح .

الفكرة ؛ فكرة الجهاد الإسلامي وامتدادها ــ بثرائها الإيماني الفريد ، على امتداد الرواية ، منذ ولج عالمها البطولي بالرؤيا الصالحة للبطل المسلم .

هذه هي البطولة في التصور الإنساني للتاريخ في الفن الذي يعبق بعبير الحب والتواد ، الذي يحتوى الكون في مجموعه ، وينظم علاقاته بالإنسان ومفردات الطبيعة ؛ ويصنع وشائج الحياة بشمولها .. فكانت شخصية " قطز " ملتقى هذه المعطيات الإنسانية والإيمانية الزاخرة بالفضائل والقيم الحضارية السامية ، فلم يخن الوطن ،أو يغتصب المُلك ، أو يتخلى عنه ، ويهرب إلى حيث النجاة كما أشار عليه جلساؤه !! وعندما اصطدمت طموحاته بمقدرات الوطن والدين ، انحاز إلى منهج الله (ﷻ) واختار بذل الغالي والنفيس في سبيل صون هذه البلاد و صيانة دين الله وإقامة قيم شرعه الحنيف ، اختار جانب الله ثم الدين ثم الوطن في نسج جمالي حضاري بديع . قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) . ويقول عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ۝كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ۝ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٤ .

إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

من خلال هذه الرؤية التي تطرحها الآيات ، تنطلق رؤية باكثير نحو تصميم علاقات متنوعة مع الكون / الحياة / الناس ؛ جهادها في شتى الجهات ، وعلى مختلف الجبهات ، فهي رؤية إنسان يتميز برد فعل تجاه ما يعرض له من مواقف أو أحداث ، يخطئ ويصيب ، مثل كل البشر ، لكن المحصلة النهائية توحي بالأمل ، وتترك في المتلقي التأثير المقنع وفق التصور الإنساني لعملية الإبداع ..

وكأن الكاتب أراد أن ينشط ذاكرة الأمة ، ويثرى واقعها بهذه النماذج الإنسانية الرائعة في عالم البطولة والجهاد الإسلامي ، في تاريخ الأمة العربية الإسلامية ليس في مصر وحدها ، بل في العالم الإسلامي كله ..

ما ذكرناه عن شخصية " قطز" ينسحب فنيا وفكريا – عبر رؤيته الحضارية للعملية الإبداعية – في معالجته لهذه الرواية ؛ ينسحب كذلك على تجاربه الإبداعية الأخرى . ولولا ضيق المقام والالتزام البحثي ، لكنا وضحنا في دراسات تحليلية متكاملة لتجاربه الإبداعية الروائية ، وكشفنا عن الطاقات والقيم الإنسانية التي كانت تشكل الرؤية أو التصور الجمالي الحضاري للفن الروائي المتكئ على أحداث التاريخ وشخوصه للروائي علي أحمد باكثير ، في أكثر من عمل روائي ، أحسبني إذا ما هيأ الله (ﷻ) الأسباب عائدا إليها في يوم ما .

---

(١) سورة المجادلة الآيات ٢٠ : ٢٢ .

المصادر والمراجع :

* القرآن الكريم جل من أنزله . .
* اتجاهات الرواية المصرية – د/ شفيع السيد ــ مكتبة الشباب –ـــ ١٩٨٧ م – القاهرة .
* الإسلام وحركة الحياة . د . نجيب الكيلاني . مؤسسة الرسالة ــ أولى ــ ١٩٩٠ ــ بيروت .
* الإسلامية والمذاهب الأدبية – د. نجيب الكيلاني – مؤسسة الرسالة – رابعة – ١٩٨٥م – بيروت .
* آفاق الأدب الإسلامي . د. نجيب الكيلاني ــ مؤسسة الرسالة طبعه أولى ــ ١٩٨٥ ــ بيروت .
* بين الأدب والتاريخ – د/ قاسم عبده قاسم ...كتاب الفكر (٧) دار الفكر للدراسات والنشر – أولى – ١٩٨٦ – القاهرة .
* الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث – د/ قاسم عبده قاسم ، د/ أحمد إبراهيم الهواري ــ دار المعارف – ١٩٧٩ .
* الرواية النسائية السعودية خطاب المرأة وتشكيل السرد ص: ١١٢ بتصرف – سامي جريدي – الانتشار العربي– أولى –
* الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي ص ٧٢ د / عماد الدين الخليل ــ مؤسسة الرسالة ــ ١٩٧٧ ــ بيروت .
* فنون الأدب "المسرحية " – د. عبد القادر القط – دار النهضة العربية ١٩٧٨ ــ بيروت .
* فن القصة – د محمد يوسف نجم – دار الثقافة – دت – بيروت .
* في النقد الإسلامي المعاصر ص ٣٢٨ ، ١١٨ . د / عماد الدين خليل

ـ مؤسسة الرسالة ـ ثالثة ـ ١٩٨٤م ـ بيروت .

* المسلمون وضرورة الوعي التاريخي- عبد القادر عبار مجلة الأمة عدد(٤٢) جمادى الآخرة (١٤٠٤ هـ - قطر .

* قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي " جزء أول للدكتور /أكرم ضياء العمري كتاب الأمة عدد ٣٩ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – قطر .

* قيم جديدة للأدب العربي – د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) – دار المعرفة – أولى – ١٩٦١ م – القاهرة .

* مدخل إلى الأدب الإسلامي – د / نجيب الكيلاني- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – كتاب الأمة – عدد (١٤) – قطر .

* مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام – أنور الجندي .مجمع البحوث الإسلامية – سلسلة البحوث الإسلامية – العدد (٥١) السنة (٤) – جمادى الأولى ١٣٩٢هـ - يولية ١٩٧٢م _ القاهرة .

* المعجم الأدبي – جبور عبد النور –ـ دار العلم للملايين – أولى – ١٩٨٤ – بيروت .

* معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص ٧٨ مجدي وهبه وكامل المهندس مكتبة لبنان ثانية ١٩٨٤م . بيروت .

* نقد الرواية في الأدب العربي الحديث – د. أحمد الهواري ـ دار المعارف – ثانية – ١٩٨٣- مصر .

* وا إسلاماه – علي أحمد باكثير – دار مصر للطباعة – دت – مصر .

* الواقع والتاريخ / اعتدال عثمان – فصول – عدد (٢/٣) – يوليو ١٩٨٢ م – القاهرة .

* الواقعية الإسلامية – د.أحمد بسام ســـاعي ــ دار المنـــارة ــ أولـــى ــ ١٩٨٥ــ جدة .

* الواقعية في الرواية العربية د. محمد حسن عبد الله – دار المعـــارف – دت – ١٩٧١ م – مصر .

* اليوم الموعود (رواية / مقدمة نقدية) د / نجيب الكيلاني –

تم بحمد الله وتوفيقه